عنوان البرنامج: تجليات التميز والتمكن في فقه النوازل عند مالكية المغرب
الوحدة الأولى: النوازل الفقهية عند علماء المدرسة المالكية الفاسية: سمات التميز والتمكن
الدرس الأول: فقه النوازل بين التميز والتمكن
اسم المحاضرة: الدكتورة أمينة مزيغة

فقه النوازل بين التميز والتمكن

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين

أبدأ دروس هذه الوحدة المباركة بدعاء المولى إدريس حين قال: «اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك، وتقام بها سنتُك وحدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها...»[1]، قاصدا به مدينة فاس وأهلَها، وذلك عند بداية أشغال بنائها، ولعل من بركات هذا الدعاء أن أصبحت فاس قِبلة للعلماء والفقهاء، إذ «في رحاب جامعِ القرويين، نبغت أعلام، وظهرت جهابذة أهل النظر والأحكام، فكان للفتوى أعيانها وشيوخها، ولِخُطَّة القضاء أقطابها، وللعلم حملته من كل فن، فكثُرت المصنفات والمجاميع، والدواوين، والرسائل، والمتون، والشروح، والحواشي، والتعاليق، مما جعل ذلك الجامع الزاهر –الذي أخذ من كل فنٍ طرفا–، كعبةَ الزوار، ومحطَ الأنظار، تُشَدُّ إليه الرِّحال من أنحاء المغرب وغيره من البلدان، يَشْرَب الكُلُّ من مَعينه، ويُستضاء بنبراسه، التقى فيه الدكالي و السوسي والتطواني والطنجي والتازي والمكناسي والرباطي،.... فكان هذا الجامع المبارك بحق جامعا للشمل، منارا للنُبل والفضل، سببا للتعارف، ووسيلةً للتآلف، أواصرُ العلم بينهم قائمة، ووشائج العرفان متشابكة،

1. انظر» تاريخ مدينة فاس من التأسيس إلى أواخر القرن العشرين الثوابت والمتغيرات» ص25، إشراف وإنجاز: محمد مزين، بمشاركة مجموعة من الأساتذة: ذ.محمد اللبار، ذ. عبد الإله بلمليح، ذ. محمد فتحة، ذ. حاج موسى عوني، ذ. محمد بوكبوط، ذ. عبد الرحيم بن حادة، ذ. جامع بيضا، ذ. محمد حاتمي. راجع العمل: د.إبراهيم بو طالب، ط الأولى 2010.

وأنوار المودة على مُحيّاهُم لائحة»[2]، بل إنه كان قِبلةً لعلماء المشرق والأندلس يَفِدون عليه ليس فقط للدراسة أو التدريس، بل كذلك لعرض النوازل الفقهية التي استعصت عليهم فلا يجدون غير فقهاء المغاربة لحلِّها، يقول سيدي أحمد بن شقرون رحمه الله:

في تونسَ الخضراءِ قولٌ سارٍ***** بينَ ذَوِي العِلم منَ الكبارِ

إن نزلت نازلة عَويصَة ***** لم يروا نُورَها، ولا بَصِيصَةٍ

جاؤُوا بقولٍ شائعٍ فِي النَّاسِ ***** ليسَ يَحُلُّهَا إلا قُضَاةُ فَاسِ

وَجَامِعٍ يُقْصَدُ مَنْ أنحاء ***** فِيهِ يُقِيم مَنْ دَنَا وَالنَائِي

مِنْ عُلَمَاءِ مُعْظَمِ البِلادِ ***** وَقَادَةٍ، فَطَاحِلٍ، أَسْيَادِ[3]

لقد درس في أروقة هذه الجامعةِ، وتخرج منها الكثير من العلماء الأجلاء الذين برزوا وتفننوا في فقه النوازل والفتاوى، وبرعوا في الإجابة على كل الوقائع المستجدة سواء أكانت فقهية أم غير فقهية، مبرهنين على قدرتهم الفائقة على الاجتهاد، وإيجاد الأجوبة والحلول لكل القضايا المطروحة في زمانهم.

فكانت أجوبة الفقهاء على أسئلة المستفتين متعلقة بالأحداث النازلة والأمور الطارئة «تبتعد في الغالب عن الجانب النظري المحض من الفقه، وتُصوِّر ألوانًا من حياة المستفتين ومعاملاتهم وعاداتهم وظروف عيشهم....»[4].

لقد تميز المغاربة بفقه النوازل، ولعل ما خلفوه من مؤلفات ومصنفات في هذا الجانب ظل وسيظل شاهدا على ما بذلوه من جهود في إيجاد أحكامٍ لوقائعهم ونوازلهم، ولا غرابة في ذلك «فالمغاربة أهل فقه، وأمةُ علمٍ نظرًا وعملاً، وأنَّهُم لم يُبدعوا في أمرٍ كما أبْدعوا في هذا الشأن، إذ دواوين الفقه، والفتاوى والنوازل أكثر من دواوين الأدبِ والشعرِ وغيرهما من الفنون...»[5]، يقول العلامة علال الفاسي رحمه الله في نفس السياق: «إننا لسنا أمةً بدونِ قانون، ولكننا أمةٌ غنيةٌ بشريعةٍ هائلةٍ أعجزت الإنسَ والجنَ عن أن ياتوا بمثلها، وقد نبغ فيها رجال منا بذلوا الكثير ولم تظهر عبقريتنا في شيء كما ظهرت في الدراسات الفقهية، والتطبيقات المحكمة على النوازل، والقضايا الطارئة».

2. أصول الفتوى والقضاء في المذهب المالكي د: محمد رياض ص:160

3. أرجوزة من زهر الآس عن جامع القرويين بفاس عبر القرون ص45.

4. فتاوي الإمام أبي إسحاق الشاطبي (ت 790هـ)، تحقيق محمد أبو الأجفان، الطبعة الثانية، ص85.

5. أصول الفتوى والقضاء في المذهب المالكي، د محمد رياض: ص 159.

إن بلوغ المغاربة هذا المبلغ الرفيع في هذا الفن البديع، بما اجتهدوا وبذلوا من وسع في تشخيص الواقعةِ والتدقيقِ فيها قَبل تنزيل الأحكامِ المناسبةِ عليها، يضع بين أيدي الدارسين والمهتمين ثروة زاخرة، كما يضعهم أمام مسؤوليةً تتمثل أساسا في إخراج كل تلك الجهود إلى حيز الوجود، والتعريف بها وبالمناهج المعتمدة من قِبَل أصحابها والاستفادة منها وتسخيرها في إيجاد الحلول للواقعات المستجدة الآنية واستشراف أخرى لما قد يطرأ مستقبلا.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المصادر والمراجع:

- تاريخ مدينة فاس من التأسيس إلى أواخر القرن العشرين الثوابت والمتغيرات» ص25، إشراف وإنجاز: محمد مزين، بمشاركة مجموعة من الأساتذة: ذ.محمد اللبار، ذ. عبد الإله بلمليح، ذ. محمد فتحة، ذ. حاج موسى عوني، ذ. محمد بوكبوط، ذ. عبد الرحيم بن حادة، ذ. جامع بيضا، ذ. محمد حاتمي. راجع العمل: د.إبراهيم بو طالب، ط الأولى 2010.
- أصول الفتوى والقضاء في المذهب المالكي، د محمد رياض.
- دفاعا عن الشريعة لعلال الفاسي.